

التفسير المختصر - سورة النساء (٤٠) - الدرس (٥٩) : تفسير الآية ٥٩ ، طاعة الله ورسوله وأولي الأمر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠٤-٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أيها الإخوة الكرام ؛ الآية التاسعة والخمسون من سورة النساء، وهي قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩)

الله سبحانه وتعالى يخاطب عامة الناس بأصول الشريعة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾

ويخاطب المؤمنين بفروع الشريعة، فحيثما قرأت في كتاب الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

فالذى آمن بالله ورسوله واليوم الآخر وملائكته وكتبه، هذا الخطاب موجه إليه، أما إذا خاطب الإنسان لعموم وصفه يقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾

فالناس يخاطبون بأصول الشريعة، بينما المؤمنون يخاطبون بفروع الشريعة.

هذه الآية أيها الإخوة، للإمام الشافعى شرح دقيق لها، كلكم يعلم إن الدين فى أصله، وحيى من الله إلى رسوله، ونقل عن رسول، فالدين وحي ونقل، فإذا قال الله عز وجل:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾

يعنى أطیعوا الأمر الذى وصلكم عن طريق الوحي، يعني القرآن، كيف أطیع الله؟ بتطبيق أوامر القرآن، وأطیعوا الرسول، وكيف أطیع الرسول؟

الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

(سورة الحشر: ٧)

وقال: ليبين للناس ما نزل إليهم.

فاللسنة النبوية المطهرة، نوعان أو ثلاثة أنواع.

أولاً: نوع قولي.

ثانياً: نوع عملي.

ثالثاً: نوع إقرارى.

فإذا وقف النبي في موقف، وحدَثَ أمامه حدثٌ، وسكت النبي، فهذه سنة، لأن سكوته يعني أنه أقره، لو لم تكن على حق لما سكت، لأنه رسول ومشرع، فهناك سنةٌ، أقواله سنة، وأفعاله سنة، وإقراره سنة.

فإذا قال الله عز وجل:

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

تتلخص طاعته في ثلاثة أشياء ؛ الأحاديث الشريفة الصحيحة التي فيها أمرٌ ونهيٌ.

ينبغي أن تطيعه فيها، وسيرته الصحيحة هكذا فعل، ففي بيته فعل كذا وكذا، مع إخوانه، مع أصحابه في حربه، في سلمه، في قيادته كانت أفعاله كذا وكذا.

سنته الفعلية هي سيرته، وإقراراته، أيضاً من سنته.

فأنت مأمور من قبل الله عز وجل، أن تطيع الأمر الذي جاءك في القرآن الكريم، وأن تطيع الأمر الذي جاء به النبي ليبين لك ما في القرآن الكريم، وأن تقلد النبي في سلوكه، وأن تطيعه أيضاً في إقراره، وهذا كلُّه واضح.

أطِيعُوا الله ؛ الأوامر القرآنية، وأطِيعُوا الرَّسُولَ سنته القولية، والعملية، والإقرارية.

الآن: وأولي الأمر منك.

الإمام الشافعي قال: وأولي الأمر هم العلماء والأمراء.

ما الفرق بينهما ؟ العلماء الذين يعرفون الأمر والنهي، والأمراء الذين ينفذونه.

لكن لو وقع شعب مسلم تحت حكم استعماري كافر، هل هؤلاء أولو الأمر ؟ لا !!! هؤلاء الكفرا هم أولو الأمر فيكم لا منكم، فمن للتبعيض.

﴿أطِيعُوا الله وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأولي الأمرِ مِنْكُمْ﴾

كلمة "من" للتبعيض.

من هم "أولي الأمر" ؟ هم العلماء الذين يعرفون أمر الله، والأمراء الذين ينفذون أمر الله، فأنت بحسب هذه الآية.

مكلفُ أن تطيع الأوامر التي وردت في هذا الكتاب.

ومكلفُ أن تتبع سنة النبي القولية والعملية والإقرارية.

ومكلفُ أن تطيع من يفتني لك وهو على علمٍ، وورعٍ وتقىٍ، ويقول لك: الحكم الشرعي في هذا المبلغ مثلاً إنه حرام، "أولي الأمر" صار معناها: عالمٌ مُفتٍ، وإذا أحيل هذا الأمر إلى الدوائر التنفيذية، فلو كنتَ أمام القاضي الشرعي مثلاً، وحكم لك في خلاف بيتك وبين زوجتك بحكم الله، فأوجب لها المهر، فهذا القاضي الشرعي من أولي الأمر، فلما أحيلت هذه القضية إلى دوائر التنفيذ، صرنا من مع "أولي الأمر" من نوع ثانٍ، وهو المنفذ.

"أولي الأمر" نوعان، الذي يعلم، والذي ينفذ، بشرط أن يكون منكم.

الآن:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ﴾

فَمَعَ مَنْ نَنْتَازُ.

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

ما ذُفَ من هذه الآية؟ هم ثلاثة فيما سبق من الآية:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَمْرٌ مِنْكُمْ﴾

قال:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾

هل تفهمون من حُذف "أولي الأمر" ، فالنزاع بين من ومن.

النزاع إذاً بين المسلمين وبين علمائهم، وبين أمرائهم، فإذا حصل نزاع وجاءك أمر مخالف للقرآن الكريم فالحكم الله ولرسوله، والقصة التي أرويها لكم دائمًا.

أن النبي صلى الله عليه وسلم: أرسل سريّة وأمرّ عليها أنصارياً فيه دعاية، هذا الانصاري بعد أن تسلّم القيادة أعطى أمراً أن تضرم ناراً عظيمة، وقال لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أميرهم: اقتحموها !!!

فترددوا، بعضهم قال كيف نقتسمها؟ وقد آمنا بالله ورسوله فراراً منها، وبعضهم قال: لا بد من اقتحامها، فطاعة الأمير طاعة الرسول.

وقعت منازعة بين الصحابة وبين هذا الأمير الذي أمرهم أن يقتحموا ناراً، والنبي حي يُرزق، فذهبوا إلى النبي يخبرونه، فقال عليه الصلاة والسلام:

((وَاللَّهُ لَوْ أَقْتَحَمُوهَا لَازَلْتُمْ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ.))

فالمنازعة هنا بين المسلمين وبين علمائهم أو بين أمرائهم، حول شرعية حكم يجوز أو لا يجوز، فمن هو الحكم في هذه المنازعة، كتاب الله وسنة رسوله، الآية أصبحت على الشكل التالي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾

طاعة أو أمره في القرآن الكريم، لأن هذا وحي من عند الله نقله إلينا النبي عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾

فالله مثلاً بين لنا البيوع بآية واحدة، والنبي بين البيوع بمئتي حديث، وأمّا الزكاة:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيْهِمْ بِهَا﴾

(سورة التوبه: ١٠٣)

فالنبي بين زكاة الزروع، و Zakat al-tadarrus ، و Zakat al-mawasi ، و Zakat al-rakaaz ، والأنصبة، ومصارف الزكاة.

فالنبي وصّى وفصل، فأنت عليك أن تطيع الله عز وجل فيما أمر، وأن تطيع النبي عليه الصلاة والسلام فيما بين بسننته القولية، وفيما فعل سنة فعلية وفيما سكت فسكته إقرار.

ذات مرة ذهب النبي عليه الصلاة والسلام إلى أحد أصحابه وقد توفي تواً في بيته، فسمع من خلف الستار امرأة تقول: هنيئاً لك أبا السائب، تعني أبا السائب، لقد أكرمك الله، فلو أن النبي سكت لكان كلامها صحيحاً، لكنه عليه الصلاة والسلام قال:

((ومن أدرك أن الله أكرمه، قوله: أرجو الله أن يكرمه.))

لأن هذا تَالٌ على الله، قولي أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبِيُّ مرسل لا أدرى ما يفعل بي ولا بكم.
إذاً النبي لم يسكت فإذا سكت فما عاد نبِيًّا، أي كلامٌ باطلٌ ثقى أمامه لا بد أن يصححها، فسنة
النبي ؛ أقواله الصحيحة، وسنة النبي أفعاله يعني سيرته، وسنة النبي إقراره.
وكثير من الأحاديث أساسها أن صحابيًّا فعل كذا وكذا في حضرة النبي، والنبي ما نهى عن ذلك،
إذاً هذه الواقعة أصبحت سنة، "أولى الأمر" هم العلماء العاملون، الصادقون، المخلصون، الذين
يعرفون أمر الله ورسوله، والذين ينفذون هذا الأمر أيضاً هم من أولي الأمر، أما لو وقع مجتمع
مسلم تحت حكم مستعمر كافر، فلا يكون هذا الكافر من أولي الأمر.

﴿إِنَّ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾
إذا آمنت أن الله هو المشرع، هو الذي يعلم، وهو الذي يحيي، وهو الذي
سيحاسب، إن آمنت بهذا، فعليك أن ترد النزاع إلى الله والرسول.
﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩)

الآن عندنا سؤالان، ماذا ترون في تعلم سنة النبي القولية؟ يعني يستحسن أن تتعلّمها، وهنا يطالعنا سؤال؟ يستحسن، يعني أهو مندوبٌ أن تتعلّمها؟ لا، أهو فرض كفاية أن تتعلّمها؟ لا، بل تعلمها فرض عين، قل لي ما الدليل في أن تعلم سنة النبي القولية فرض عين، لأن الله تعالى يقول:

وَمَا أَتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

فكيف تأخذ شيئاً لا تعلم؟ إذاً كل واحد من إخواننا الحاضرين عليه أن يعرف سنة النبي القولية، وهذا فرض عين، ولا يعفى منه أحد.

وهذا سؤال آخر:

أقراءة سيرة رسول الله، يعني: مستحسن، مندوب، فرض كفاية؟ لا بل تعلمها فرض عين، والدليل:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

(سورة الأحزاب: ٢١)

أمر إلهي هو قدونتك، كيف تقتندي به وأنت لا تعلم أحواله وأفعاله وتصرفاته، إذًا لابد من تعلم سنة النبي القولية والفعلية والإقرارية حتى تنفذ أمر الله عز وجل.

أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

هذا طيب، ثم لابد من أن تستنقى العلم من أولي الأمر الذين يعرفون أمر الله.

ابن عمر دينك دينك خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا، إذاً
﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَنْعَمُ ﴾
العلماء والأمراء طبعاً منكم.

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾

مثل ما صار مع الصحابة، تنازعوا مع أميرهم، قال لهم: اقتحموا النار، فلما ردوا هذه المنازعة إلى الله ورسوله، قال عليه الصلاة والسلام: والله لو اقتحمتوها لازلت فيها إلى يوم القيمة إنما الطاعة في معروف.

﴿ وَأُولَئِكُمْ أَنْعَمُ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَكَرْ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩)

هذه الآية واضحة، وتلخيص للموضوع أقول:
طاعة الله في اتباع القرآن.

طاعة النبي في العمل سنته القولية والعملية والإقراري.

طاعة أولي الأمر، أن تتعلم من العلماء الذين يعلمون أمر الله ورسوله، وأن تطيعهم فيما يفتون لك بشرط أن يكون من المسلمين، أما إذا وقع المسلمون تحت سيطرة كافرة أجنبية، عندئذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

و الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم..

والحمد لله رب العالمين